

محاضرات في الأدب الجاهلي المرحلة الأولى إعداد الدكتور حسين لفته

مقدمة :

الشعر الجاهلي مرآة الحياة العربية , والصورة الصادقة لعادات العرب وتقاليدهم ومثلهم , فيه من القيم الفنية والصور الجميلة الرائعة , والمعاني الدقيقة الموحية ما يجعله يعد بحق ذروة الشعر العربي , وقد كان القدوة المثلى التي يحتذيها الشعراء في العصور الأموية والعباسية , يسعون الى تقليده ومحاكاته وقد بقى اثر الشعر الجاهلي واضحا في شعر العصور المتأخرة ومازال له سلطانه في نفوس قارئيه وسامعيه , لما فيه من أصالة وجمال في التعبير ودقة في المعاني ونضج فني وموسيقي ولغوي كبير .

والشعر الجاهلي قديم موغل في القدم , مر بأطوار وأزمان طويلة , كان في عهد بداية وطفولة , ثم نما وترعرع حتى استوى قصيدا متينا على يد أمريء القيس واضرابه من فحول الجاهلية , ولا بد ان يكون للشعر تاريخ طويل قطع فيه أشواطا من الصناعة والدربة حتى استقام وكمل على هذا الشكل الموزون المقفى , ذي الأسلوب الموجز الجميل , والخيال الخصب , والتعبير الدقيق الذي لا لغو فيه ولا تطويل , وفي لغته المتينة الجارية وفي أصول متبعة في ذلك الشعر , وان المعلقات التي بلغت مرتبة كبيرة من النضج الفني , ونالت إعجاب القدماء والمحدثين , كانت نتيجة دربة ومران طويل في صناعة الشعر .

ولم يكن هذا الفن الكلامي عمل فرد او بضعة أفراد , بل كان عمل أجيال متعاقبة , وجد بعض أبنائها في أنفسهم المقدرة على صوغ أفكارهم وإحساساتهم في الحان وأوزان تهتز لها النفس وفق ما تعارف الناس في التعبير اللغوي .

نظريات نشوء الشعر الجاهلي :

ليس من المستطاع تحديد فترة معينة لبدء تلك المحاولات , ولكن ما بأيدي الرواة من الشعر الجاهلي يرقى عهده إلى مائتي سنة على الأكثر , وهذا هو التحديد الذي قرره الجاحظ حين قال :

" وأما الشعر فحديث الميلاد صغير السن , وأول من نهج سبيله وسهل الطريق إليه امرؤ القيس , ابن حجر , ومهلل بن ربيعة ... فإذا استظهرنا الشعر , وجدنا له - الى ان جاء الله بالإسلام - خمسين ومائة عام , وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتي عام " . ينظر كتاب (الحيوان) : ٧٤١١ .

والجاحظ هنا يعين عمرا للشعر الذي عرف وهو ناضج مكتمل , أما ما قبل ذلك , فلا يمكن ان يجد بفترة قليلة كهذه , فهناك مئات من السنين مر بها الشعر حتى وصل مكتملا الى مهلهل وامرؤ القيس وعنتره , وغيرهم .

وفي الشعر نفسه من الدلائل الواضحة على انه مسبوق بكلام كثير ومحاولات عهدها طويل , فامرؤ القيس يحاكي من قبله في الوقوف على الديار والبكاء عليها :

عوجا على الظلل المحيل لأننا نبكي الديار كما بكى ابن خدام

ويقول عنتره ان الشعراء الأقدمين تناولوا شتى المعاني فلم يتركوا للمتأخرين معنى صالحا :

هل غادر الشعراء من مُتردِّم ام هل عرفت الدار بعد توهم

وهذا إقرار واضح بان عنتره مسبوق بأجيال من الشعراء , استنفدوا المعاني الجيدة والتعابير الجميلة فلم يغادروا معنى لم يطرقيه .

وينبغي ان نعرف ان كلمة الجاهلية التي أطلقت على هذا العصر ليست مشتقة من الجهل الذي هو ضد العلم ونقيضه , انما هي مشتقة من الجهل بمعنى السفه والغضب والنزق , فهي تقابل كلمة الإسلام التي تدل على الخضوع والطاعة لله عز وجل وما يطوي فيها من سلوك خلقي كريم , ودارت الكلمة في الذكر الحكيم والحديث النبوي الشريف والشعر الجاهلي بهذا المعنى من الحمية والطيش والغضب ففي سورة البقرة " قالوا أتتخذنا هزوا قال أعوذ بالله من ان أكون من الجاهلين " , وفي سورة الأعراف : " خذ العفو وأمر بالعرف واعرض عن الجاهلين " , وفي معلقة عمرو بن كلثوم التغلبي :

الا لا يجهلن احد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وواضح في هذه النصوص جميعا ان الكلمة استعملت من قديم للدلالة على السفه والطيش والحمق , وقد أخذت تطلق على العصر القريب من الإسلام او بعبارة أدق على العصر السابق له مباشرة وكل ما كان من وثنية وأخلاق قوامها الحمية والأخذ بالثأر واقتراف ما حرّمه الدين الحنيف من موبقات .

وهذا الشعر الذي عرفه العرب عند الشعراء الجاهليين , وجد قريبا من الكمال , حائزا على أسباب الجمال والإتقان , لفظا ومعنى وعروضا , حتى ان الشعراء المولدين لم يستطيعوا ان يضيفوا إليه جديدا بارعا , فلم يزيدوا على البحور الجاهلية شيئا , ولم يتمكنوا من تغيير نهج القصيدة , ومهما كانت تلك المحاولات التي بذلت للخروج على عمود الشعر في العصر العباسي , فإنها انتهت بالعودة إليه , ولم يضيفوا الى موضوعات الشعر الجاهلي شيئا ذا بال , ويصدق هنا قول ابن رشيق القيرواني في المقارنة بين شعر الجاهليين وشعر الإسلاميين :

" وإنما مثل القدماء والمحدثين كمثل رجلين , ابتدأ هذا بناء فاحكمه وأتقنه , ثم أتى الآخر فنقشه وزينه , فالكلفة ظاهرة على هذا وان حسن , والقدرة ظاهرة على ذلك وان خشن " . ينظر العمدة : ٩٢\١ .

هذا الشعر الخصب الزاهي الجزل المتين , نزل من النفس العربية منزلا رفيعا , فهو عند العرب سجل العواطف والمآثر والمفاخر , والشعر يصور حقيقة أهله ونفسية قائله بكل ما لهم من بطولات وأمجاد , وبأس وشدة , وعصبية وغضب , وكرم ووفاء , يصور خصال الخير كما يبين دواعي الشر , ويسجل أيامهم ووقائعهم وأصولهم وأنسابهم , فهو على ذلك ديوانهم يقول أبو هلال العسكري :

" كذلك لا نعرف انساب العرب وتواريخها وأيامها ووقائعها الا من جملة أشعارها , فالشعر ديوان العرب وخزانة حكمتها , ومستنبت آدابها ومستودع علومها " ينظر كتاب الصناعتين : ١٣٨ .

فهم لذلك إذا اعتزوا بمكرمة أو نصر أو حادث سجلوا ذلك في قصيدة , فهي أبقى على الدهر من كل عمل , واخذ من كل اثر , وهذه سنة العرب في تخليد مآثرهم .

لعل الدافع وراء البحث عن أوليات الشعر الجاهلي يعود الى انه من غير المعقول ان يبلغ فن من الفنون حد النضج والاستواء فجأة , أو في زمن وجيز , بخاصة في تلك الأزمان الأولى , حيث كان إيقاع الحياة بطيئاً للغاية , وعمليات التطور تستغرق قرونا من الزمان , وهذا يتطلب منا أن نفكر في هذا الفن الجميل , كيف بدا , حتى بلغ مرحلة النضج هذه وحتى صارت له تلك المكانة في ضمير الفرد والجماعة على السواء .

ولعل أشهر الفروض الراجحة في تفسير أوليات الشعر الجاهلي تتمثل في ما ذهب إليه علماء تاريخ الأدب إلى أن الشعر العربي قد نشأ في جاهلية العرب الأولى نتيجة لتطور المبارات المسجوعة , التي كان يستخدمها الكهنة في رقاهم وتنبؤاتهم , والعبارات الأخرى المسجوعة في بعض الأحيان التي كانت تجري على الألسنة مجرى المثل , فسجع الكهان يشير الى المصدر السحري للشعر العربي , والأمثال تشير الى المصدر الواقعي العملي له في حياة الناس اليومية , ولا بد ان يكون هذان المصدران قد تآزرا معا في دفع التعبير الشعري الى الظهور والانتشار بين الناس .

والسؤال المهم هو كيف خرج الشعر من عباءة السجع ؟

المعروف ان السجع ضرب خاص من التلوين الموسيقي للكلام , يراعي فيه التجنيس الصوتي بين أواخر الجمل أو أجزاء الواحدة , فالكلمة الأخيرة في هذه الجمل او في هذه الأجزاء تنتهي بحرف واحد هو أشبه بحرف الروي الذي تنتهي به قوافي الأبيات في القصيدة الواحدة , وليس الأمر في السجع مقصورا على التزام تكرار هذا الحرف فحسب , بل يستتبع ذلك الالتزام بالحركة السابقة عليه , وهو نفس الالتزام المعروف في قوافي الشعر , وعلى ذلك نستطيع القول ان السجع بهذه المثابة هو شعر مقفى ولكن دون التزام بوزن موسيقي او بحر بعينه في صلب الجملة .

ونحن بهذا نوازن بين السجع والقصيدة في صورتها الكاملة الناضجة , التي لم تتحقق الا بعد مراحل كثيرة وطويلة من التطور , فالسجع لم يتطور مباشرة الى شكل القصيدة الكامل هذا , بل تطور في البداية الى مقطوعات قصيرة للغاية كلها من وزن الرجز , الى ان كان القرن الخامس الميلادي فإذا بنا نجد المهلهل - كما تقول

الروايات - يبتكر شكل القصيدة المعروف , ثم يمر جيلان بعده حتى يظهر امرؤ القيس فإذا به يطيل القصيدة ويفتن فيها , مستعملا أوزانا أخرى غير الرجز . ينظر كتاب الأغاني : ٥٧\٥ .

وعلى هذا يمكن ان يقال ان شعر الرجز كان أول الأشكال الشعرية التي ظهرت لدى العرب القدامى فهذا ما تعين عليه الشواهد القليلة التي بين أيدينا , ومما يؤكد الاستنباط كذلك , فالمعروف ان الرجز يتكون من شطرات هي بمثابة الجمل او أجزاء الجمل , وان كل شطر منها مقفاة بالضرورة , وهو بذلك اقرب شيء الى السجع , بل هو السجع نفسه قد حددت المسافات الموسيقية لجمله , واذا كان السجع في النثر يقتصر على عدد محدود من الجمل , ينتقل بعدها المتكلم الى سجع آخر , فان المقطوعة الرجزية القصيرة التي كانت بداية الشكل الشعري تمثل هذا العدد المحدود من الجمل .

ويبدو ان بعض مؤرخي الشعر العربي ربطوا بين هذا الوزن وحركة الإبل في سيرها الرتيب المنتظم , فوجدوا نوعا من التوافق بين نظام وقع أخفاف الإبل والإيقاع الموسيقي لهذا الوزن , وقد ساعدهم على هذا الربط بين الظاهرتين ان الرجز كان يمثل الحداء الذي يتغنى به مغني القافلة في مسيرتها الطويلة , وان الإبل ذاتها كانت ترتاح الى هذا الحداء , فكأن هناك ائتلافا وانسجاما بين وقع الكلمات ووقع الاخفاف , ومن ثم برز النظام في موسيقى الجمل المسجوعة , وبعد ان كانت خالية منه , ونتج عن ذلك وزن الرجز . ينظر تاريخ الأدب العربي (بروكلمان): ٥٢\١ .

لقد كان الرجز في بداية وجوده يلبي حاجة الإنسان في العصر الجاهلي لأنه كان اقرب الى الارتجال فكان الفرد , ينطلق بالمقطوعة الصغيرة منه في أي مناسبة دون سابق احتشاد , ولكنه فيما بعد لم يعد مقصورا على المقطوعة الارتجالية الصغيرة بل صار يستعمل كالأوزان الأخرى التي جددت بعده والتي كانت تقال فيها القصائد , بل ظهر من الشعراء ذوي المكانة من تخصصوا في هذا الفن اعني الرجز مثل العجاج ورؤبة .

لقد استوعب الرجز كل أغراض الحياة في الجاهلية , كان وسيلة الأم والأب لتدليل طفلها والتغني له والمفاخرة به ومثلما صنعت ام الفضل الهلالية حين راحت ترقص ابنها عبد الله ابن العباس فقالت :

تكلت نفسي وثكأت بكري
ان لم يسد فهرا وغير فهر
بالحسب العد وبذل الوفر
حتى يوارى في ضريح القبر

وهناك نماذج للرجز في صدر الإسلام قريبة العهد بالجاهلية , ومنها الرجز الذي قاله الإمام علي عليه السلام عند بناء النبي(صلى الله عليه واله وسلم) مسجدا بعد هجرته الى المدينة جاء فيه :

لا يستوي من يعمر المساجدا
يدأب فيها راکعا وساجدا
وقائما طورا وطورا قاعدا
ومن يرى عن الغبار حائدا

إذا عرف العرب في العصر الجاهلي شكلين من التعبير الشعري احدهما يسمونه الرجز والآخر يسمونه القصيد وهم كانوا يميزون بين هذين الشكلين , وقد كانوا يضمرون للقصيد تقديرا أعلى من الرجز .

لقد تعددت النظريات التي تحاول تشخيص طبيعة الشعر الأولى وخصائصه ووظائفه في الحياة , ومنها تلك النظرية التي تعزو الأولوية الشعرية الى وظيفة دينية حيث كان الشعر محض ترديدات وترانيم بدائية يقصد بها السحر وتخاطب المجهول الذي شغل النفس الإنسانية وامتلك مشاعرها , فكان توجهه اليه غامضا مشبوبا بالرهبة ثم تحول الى شعور مليء بالتقديس , فتحول الشعر الى أناشيد دينية في المعابد والهيكل وبيوت الآلهة , ثم الى ملاحم وتمثيلات تنشد في المناسبات الاحتفالية والمواسم التي تتصل بعباداتهم وأعمالهم وأسواقهم وزرعهم وحصادهم

وزواجهم ووفاتهم وبقية أنشطتهم الإنسانية , فقد كان الغرض من الشعر قبل كل شيء هو السحر الذي كان يدير الحياة البشرية يومئذ , وكان الغرض من الرثاء البدائي بعث الراحة في نفس القتيل , ثم تحول في الشعر الجاهلي الى واقع مرير يصور الألم المحض الذي يعتصر النفس الإنسانية في حالة القتل أو الموت .

ومن الجدير بالذكر ان العلماء القدامى أمثال ابن سلام وابن قتيبة قد قررا في كتابيهما المشهورين ان أقدم الشعر هو الذي بدا بمهلل بن ربيعة وانه هو الذي قصد القصائد , وهلهل نسجها , أي جاء بها طويلة رقيقة بعد ان كان الشعر لا يتجاوز لدى الشاعر أبياتا او مقطوعة يقولها بين يدي حاجته , ولما كان مهلهل خال امريء القيس فقد اسندوا هذه الأولية الشعرية اليه أيضا للمعاصرة والقدم , قال ابن سلام (وكان امرؤ القيس بن حجر بعد مهلهل , ومهلهل خاله وطرفة وعبيد وعمرو بن قميئة والمتلمس في عصر واحد) , الا ان المصادر تضيف أسماء أخرى الى قائمة الأوائل مثل ابي دؤاد الأيادي الذي قالوا عنه ان امرأ القيس كان يتوكأ على شعره وكان من رواته , وعدوا في الأوائل عمرو بن تميم والأضببط ابن قريع والافوه الاودي , الا إنهم ذكروا أسماء شعراء آخرين سبقوا هؤلاء جميعا وسبقوا المهلهل نفسه , وذكروا لهم أشعارا يدخل بعضها في دائرة الشعر الجيد الوارد في المصادر الوثيقة , وبعضه يرد ضمن المصادر التي تنقل عن كتب القصص والأخبار مما يتطرق الشك الى روايتها , فمن أمثلة هؤلاء الشعراء الأوائل السابقين لمهلهل : (دويد بن نهد القضاعي , وأعصر بن قيس بن عيلان , والحارث بن كعب , والمستوغر بن ربيعة , وزهير ابن جناب الكلبي , والملك جذيمة الابرش قتيل الملكة الزباء) .

لقد حاول ابن سلام ان يعالج نظرية القدماء في أولية الشعر وخاصة الشعر المنسوب إلى آدم ونوح (عليهما السلام) ورجالات من عاد وثمود وزرقاء اليمامة وغيرهم , وقد رفضت علميا , قال ابن سلام : (وإنما قصدت القصائد وطول الشعر في عهد عبد المطلب وهاشم بن عبد مناف) وذلك يدل على إسقاط شعر عاد وثمود وحمير وتبع , ثم اخذ ابن سلام يصحح الشعر القديم جدا فيورد أمثلة من شعر مجموعة قال عنهم ما نصه :

" فمن قديم الشعر والصحيح قول العنبر بن عمرو بن تميم " ثم ذكر شعره وضرب أمثلة لطائفة من الشعراء الذين ذكرنا أسمائهم . ينظر طبقات فحول الشعراء : ٢٦١ . وتلحق بنظرية خروج الشعر من الرجز نظرية خروج الرجز من ضلع السجع , وهي تعطي للنثر أولية النشأة وأسبقية الإبداع , وذلك من زعمهم سقوط سجعيتين من فم كاهن صارت سببا في ولادة الرجز ثم الشعر .

وليست مقولة ارتباط الشعر في نشأته بوقع أخفاف الإبل الا صدق للنظرية التي ترى ان نشأة الشعر كانت من النغم والعمل , ورائدها جورج ياكوب , لكن العلماء ردوا على هذه النظرية بأنها مجرد تخمين وحدث وتنفيها ظاهرة وجود الشعر الموزون عند شعوب أخرى لم تتركب ناقية ولا جملا , هذا وان أخفاف الإبل او سيرها لا تنسجم الا مع بحر واحد فقط , فالأولية كما أفادت المعطيات الشعرية والتحدرات العقائدية تبقى دينية سحرية دفعت بها الى الوجود عوالم الوثنية الموغلة في القدم .

مصادر دراسة الأدب الجاهلي :

- ١- جمهرة أشعار العرب , لأبي زيد القرشي .
- ٢- طبقات فحول الشعراء , لابن سلام الجمحي (ت ٢٣٢هـ).
- ٣- المفضليات , للمفضل الضبي (ت ١٦٩هـ) .
- ٤- الاصمعيات , للأصمعي عبد الملك بن قريب (ت ٢١٦هـ) .
- ٥- الأغاني , لأبي الفرج الأصفهاني (ت ٣٥٦هـ) .
- ٦- شرح المعلقات السبع , للزوزني .
- ٧- شرح القصائد العشر , للتبريزي .
- ٨- شرح القصائد التسع المشهورات , لأبي جعفر النحاس .
- ٩- خزانة الأدب , للبغدادي .
- ١٠- شرح ديوان الحماسة , للمرزوقي (ت ٤٢١هـ) .
- ١١- الشعر والشعراء , لابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) .
- ١٢- البيان والتبيين , للجاحظ (ت ٢٥٥هـ) .
- ١٣- العمدة , لابن رشيق القيرواني (ت ٤٥٤هـ) .
- ١٤- المثل السائر , لابن الأثير (ت ٦٣٧هـ) .
- ١٥- المزهرة , للسيوطي (ت ٩١١هـ) .
- ١٦- جمهرة الأمثال , للعسكري (ت ٣٩٥هـ) .

- ١٧- العقد الفريد , لابن عبد ربه الأندلسي (ت٣٢٨هـ) .
- ١٨- كتاب أيام العرب , لأبي عبيدة(ت٢١٠هـ) .
- ١٩- المفصل في تاريخ العرب , الدكتور جواد علي .
- ٢٠- تاريخ الأدب العربي , كارل بروكلمان .
- ٢١- في الأدب الجاهلي , الدكتور طه حسين .
- ٢٢- العصر الجاهلي , الدكتور شوقي ضيف .
- ٢٣- مصادر الشعر الجاهلي , ناصر الدين الأسد .
- ٢٤- الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه , الدكتور يحيى الجبوري .
- ٢٥- تاريخ الآداب العربية حتى عصر بني أمية , كارل نلليانو .